فصل[1]

وإذا تأمَّلتَ ما دعا الله سبحانه في كتابه عبادَه إلىٰ الفِكْر فيه أوقَعكَ علىٰ العلم به سبحانه وتعالىٰ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، مِنْ عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبِرِّه ولُطْفِه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه؛ فبهذا تعرَّف إلىٰ عباده، وندبهم إلىٰ التفكُّر في آياته.

ونذكرُ لذلك أمثلةً مما ذكرها الله سبحانه في كتابه؛ ليُسْتَدلَّ بها علىٰ غيرها:

فمِنْ ذلك: خَلْقُ الإنسان، وقد نَدَبَ سبحانه إلىٰ التفكُّر فيه والنظر في غير موضعٍ من كتابه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا

---

(١) انظر لهذا الفصل وما بعده مما يتعلَّق بعجائب خلق الإنسان وباقي المخلوقات: «أيمان القرآن» للمصنف (٤٤٦ - ٦٣٦)، وقال في خاتمة بحثه: «وهذا فصلٌ جرَّه الكلام في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، أشرنا إليه إشارةً، ولو استقصيناه لاستدعى عدة أسفار، ولكن فيما ذكرناه تنبيهٌ على ما تركناه»، و«شفاء العليل» (٦٣٥ - ٦٤٩)، وقال: «وهذا بابٌ لو تتبَّعناه لجاء عدة أسفار...».

﴿يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ – ٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ (٢٠) فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ (٢٢) فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ – ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٧٧]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ (١٢) ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ (١٣) ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ ١٤].

وهذا كثيرٌ في القرآن؛ يدعو العبدَ إلىٰ النظر والفِكْر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره؛ إذ نفسُه وخلقُه من أعظم الدَّلائل علىٰ خالقه وفاطره، وأقربُ شيءٍ إلىٰ الإنسان نفْسُه، وفيه من العجائب الدَّالَّة علىٰ عظمة الله ما تنقضي الأعمارُ في الوقوف علىٰ بعضه؛ وهو غافلٌ عنه، مُعرِضٌ عن التفكُّر فيه، ولو فكَّر في نفسه لزجرهُ ما يعلمُ من عجائب خَلْقِها عن كُفْرِه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ – ٢٢].

فلم يكرِّر سبحانه علىٰ أسماعنا وعقولنا ذِكرَ هذا لنسمع لفظ النُّطفة(١)

---

(١) (ت، ح): «ذكر النطفة».

والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلَّم بها فقط[١]، ولا لمجرَّد تعريفنا بذلك[٢]، بل لأمرٍ وراء ذلك كلِّه هو[٣] المقصودُ بالخطاب، وإليه جرىٰ ذلك الحديث[٤].

فانظر الآن إلىٰ النطفة بعين البصيرة؛ وهي قطرةٌ من ماءٍ مهينٍ ضعيفٍ مُسْتَقْذر، لو مرَّت بها ساعةٌ من الزمان فسَدت وأنتنَت، كيف ٱستخرجها ربُّ الأرباب العليمُ القديرُ من بين الصُّلب والتَّرائب، منقادةً لقدرته، مطيعةً لمشيئته، مذلَّلةَ القِياد علىٰ ضيق طُرقِها واختلاف مجاريها، إلىٰ أن ساقها إلىٰ مستقرِّها ومَجْمَعِها.

وكيف جمع سبحانه بين الذَّكر والأنثىٰ، وألقىٰ المحبَّة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشَّهوة والمحبَّة إلىٰ الاجتماع[٥] الذي هو سببُ تخليق الولد وتكوينه.

وكيف قدَّر ٱجتماع ذَينِك الماءين مع بُعْدِ كلٍّ منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق[٦] والأعضاء، وجمعهما في موضعٍ واحدٍ جُعِلَ لهما قرارًا مكينًا، لا ينالُه هواءٌ يفسدُه، ولا بردٌ يجمِّدُه، ولا عارضٌ يصلُ إليه، ولا آفةٌ تتسلَّطُ عليه.

---

(١) (ت): «النعلم بها فقط».

(٢) (ت): «معرفتنا لذلك».

(٣) (ت، د، ق): «وهو».

(٤) انظر: «الإحياء» (٤/ ٤٣٥ – ٤٤٠)، وأصول مباحث هذا الفصل منه.

(٥) (ق، د، ت): «بسلسلة المحبة والاجتماع». والمثبت من (ن، ح) والإحياء.

(٦) (ت): «أعلق العروق».

ثمَّ قَلَبَ تلك النطفةَ البيضاء المشرقة علقةً حمراءَ تَضرِبُ إلىٰ سوادٍ، ثـمَّ جعلها مضغةَ لحمٍ مخالِفةً للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثـمَّ جعلها عظامًا مجرَّدةً لا كسوةَ عليها، مباينةً للمضغة في شكلها وهيئتها وقَدْرِها وملمسها ولونها.

وانظر كيف قسَّم تلك الأجزاء[1] المتساوية المتشابهة إلىٰ الأعصاب والعظام والعُروق والأوتار واليابس واللَّيِّن، وبَيْن ذلك، ثمَّ كيف رَبَط بعضها ببعضٍ أقوىٰ رباطٍ وأشدَّه وأبعدَه من الانحلال[2].

وكيف كساها لحمًا ركَّبه عليها، وجعله وعاءً لها وغشاءً وحافظًا، وجعلها حاملةً له مقيمةً له؛ فاللحمُ قائمٌ بها وهي محفوظةٌ به.

وكيف صوَّرها فأحسنَ صُوَرها، وشقَّ لها السَّمعَ والبصرَ والفمَ والأنفَ وسائر المنافذ، ومَدَّ اليدين والرِّجلين وبسطهما، وقسَّم رؤوسَهما بالأصابع، ثمَّ قسَّم الأصابعَ بالأنامل، وركَّب الأعضاءَ الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطِّحال والرِّئة والرَّحِم والـمَثانة والأمعاء، كلُّ واحدٍ منها له قَدْرٌ يخصُّه ومنفعةٌ تخصُّه.

ثمَّ انظر الحكمةَ البالغة في تركيب العظام قِوامًا للبدن وعِمادًا له، وكيف قدَّرها ربُّها وخالقُها بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ مختلفة؛ فمنها الصَّغيرُ والكبير، والطَّويلُ والقصير، والـمُنْحَني والمستدير، والدَّقيقُ والعريض، والـمُصْمَتُ والـمُجَوَّف، وكيف ركَّب بعضها في بعض؛ فمنها ما تركيبُه

---

(١) (ح، ن): «كيف سلك تلك الأجزاء».

(٢) (ت): «الإحلال». (د، ق): «الإخلال».

تركيبُ الذَّكر في الأنثىٰ، ومنها ما تركيبُه تركيبُ ٱتصالٍ فقط، وكيف ٱختلفت أشكالُها باختلاف منافعها؛ كالأضراس، فإنها لما كانت آلةً للطَّحْن جُعِلَت عريضةً، ولما كانت الأسنانُ آلةً للقَطع جُعِلَت مُستدِقَّةً محدَّدة[1].

ولما كان الإنسانُ محتاجًا إلىٰ الحركة بجُملة بدنه وببعض أعضائه للتَّردُّد في حاجته لم يجعَل عظامه عظمًا واحدًا، بل عظامًا متعدِّدة، وجعل بينها مفاصل حتىٰ تتيسَّر بها الحركة[2]، وكان قَدْرُ كلِّ واحدٍ منها وشكلُه علىٰ حسب الحركة المطلوبة منه.

وكيف شَدَّ أسْرَ تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعضٍ بأوتارٍ ورِباطاتٍ أنبتها من أحد طرفي العظم[3]، وألصقَ العظمَ بالطَّرف الآخر كالرِّباط له، ثمَّ جعل في أحد طرفي العظم زوائدَ خارجةً عنه، وفي الآخر نُقَرًا غائصةً فيه موافقةً لشكل تلك الزوائد؛ ليدخُل فيها ويَنْطَبِق عليها، فإذا أراد العبدُ أن يحرِّك جزءًا من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصلُ لتعذَّر عليه ذلك.

وتأمَّل كيفيَّة خَلْق الرَّأس، وكثرةَ ما فيه من العظام، حتىٰ قيل: إنها خمسةٌ وخمسون عظمًا[4]، مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركَّبه سبحانه وتعالىٰ علىٰ البدن، وجعله عاليًا عليه عُلُوَّ الراكب علىٰ مركوبه؛

---

(١) (ت، ح): «محدودة».

(٢) (ت): «حتى يسير بهما». (ق، د): «حتى يتيسر بها». والمثبت من (ح، ن) و«الإحياء».

(٣) (ق): «من طرفي العظم». وسقط من (ت، ن) من قوله: «العظم» إلى: «ثم جعل في» بسبب انتقال النظر. والمثبت من (د، ح) و«الإحياء».

(٤) تفصيلها في «الإحياء» (٤/ ٤٣٦).

ولما كان عاليًا علىٰ البدن جَعَل فيه الحواسَّ الخمسَ وآلات الإدراك كلَّها من السَّمع والبصر والشَّمِّ والذَّوق واللَّمس.

وجَعَل حاسَّة البصر في مُقَدَّمه؛ ليكون كالطَّليعة والحَرَس والكاشف للبدن، وركَّب كلَّ عينٍ من سبع طبقات، لكلِّ طبقةٍ وصفٌ مخصوص، ومقدارٌ مخصوص، ومنفعةٌ مخصوصة، لو فُقِدَت طبقةٌ من تلك السَّبع الطِّباق[1] أو زالت عن هيئتها وموضعها[2] لتعطَّلت العينُ عن الإبصار.

ثمَّ أركزَ[3] سبحانه داخل تلك الطَّبقات السَّبع خلقًا عجيبًا، وهو إنسانُ العَيْن، بقَدْر العَدَسَة، يبصرُ به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجَعَله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو مَلِكُها، وتلك الطَّبقاتُ والأجفانُ والأهدابُ خَدَمٌ له وحُجَّابٌ وحُرَّاس، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

فانظر كيف حسَّن شكلَ العينين وهيأتهما ومقدارهما، ثمَّ جمَّلهما بالأجفان غطاءً لهما وسترًا وحفظًا وزينة؛ فهما يلتقيان[4] عن العين الأذىٰ والقذىٰ والغُبار، ويُكِنَّانهما[5] من البارد المؤذي[6] والحارِّ المؤذي، ثمَّ

---

(١) (ت): «السبع طبقات». (ح): «الطبقات».

(٢) (ق، د): «ومواضعها».

(٣) (ن): «ركز».

(٤) كذا في (د، ق، ح، ن) وجميع نسخ «أيمان القرآن» (٤٥٩). وفي (ت): «يلقيان». وأصلحت في (ط) إلى «يتلقيان». واستعمال «التقىٰ» موضع «تلقىٰ» يقع في كلام المتأخرين. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (٩/ ٢٧٠).

(٥) (ت): «ويكنفانها».

(٦) (ت، ق): «المودي». والمودي: الهالك. ولعلها: المردي. كما سيأتي (ص: ٧٢٩). والجناس أليق بأسلوب المصنف.

غَرَس في أطراف تلك الأجفان الأهدابَ جمالًا وزينة، ولمنافع أُخَر وراء الجمال والزِّينة، ثمَّ أودعهما ذلك النُّورَ الباصرَ والضوءَ الباهرَ الذي يَخْرقُ ما بين السماء والأرض، ثمَّ يخرقُ السماءَ مجاوزًا لرؤية ما فوقها من الكواكب. وقد أودعَ سبحانه هذا السرَّ العجيبَ في هذا المقدار الصَّغير بحيث تنطبعُ فيه صورةُ السَّموات مع اتساع أكنافِها وتباعُد أقطارها.

وشَقَّ له السَّمع، وخلق الأذنَ أحسنَ خِلقةٍ وأبلغَها في حصول المقصود منها، فجعلها مجوَّفةً كالصَّدفة؛ لتجمعَ الصَّوتَ فتؤدِّيه إلىٰ الصِّماخ[1]، وليُحِسَّ بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلىٰ إخراجه، وجَعَل فيها غُضونًا وتجاويفَ واعوجاجاتٍ تمسكُ الهواءَ والصَّوتَ الدَّاخل فتكسرُ حِدَّته ثم تؤدِّيه إلىٰ الصِّماخ.

ومن حكمة ذلك أيضًا: أن يُطَوَّل به الطريقُ علىٰ الحيوان، فلا يَصِلُ إلىٰ الصِّماخ حتىٰ يستيقظ أو ينتبه لإمساكه. وفيه ـ أيضًا ـ حِكَمٌ غيرُ ذلك.

ثمَّ اقتضت حكمةُ الربِّ الخالق سبحانه أنْ جَعَل ماء الأذن مرًّا في غاية المَرارة، فلا يجاوزُه الحيوانُ ولا يقطعُه داخلًا إلىٰ باطن الأذن، بل إذا وصل إليه أعمَل الحيلةَ في رجوعه، وجَعَل ماء العَين مِلْحًا[2] ليحفظها؛ فإنها شَحْمةٌ قابلةٌ للفساد، فكانت ملوحةُ مائها صيانةً لها وحفظًا، وجَعَل ماء الفم عَذبًا حُلوًا ليُدرِك به طُعومَ الأشياء علىٰ ما هي عليه؛ إذ لو كان علىٰ غير هذه الصِّفة لأحالها إلىٰ طبيعته، كما أنَّ مَنْ عَرَض لفمه المرارةُ استمرَّ طعمَ الأشياء التي ليست بمُرَّة، كما قيل:

(١) الصِّماخ: خَرقُ الأذن الباطنُ الذي يفضي إلى الرأس. «اللسان» (صمخ).

(٢) (د، ق، ت): «مالحا». والمثبت أفصح.

ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا بِه الماءَ الزُّلالا [(١)]

ونَصَب سبحانه قَصَبة الأنف في وسط الوجه، فأحسنَ شكلَه وهيئتَه ووضعَه، وفَتَح فيه المَنْخِرَين، وحَجَز بينهما بحاجز، وأودَع فيهما حاسَّة الشَّمِّ التي تُدْرَكُ بها أنواعُ الروائح الطيِّبة والخبيثة والنافعة والضارَّة، وليستنشقَ به الهواءَ فيوصِلَه إلىٰ القلب فيتَروَّح به ويتغذَّىٰ به.

ثمَّ لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغُضون ما جَعَل في الأذن؛ لئلَّا يُمسِكَ الرائحةَ فيُضعِفَها ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مَصَبًّا تنحدِرُ إليه فضلاتُ الدِّماغ فتجتمعُ فيه ثمَّ تخرجُ منه.

واقتضت حكمتُه أنْ جَعَل أعلاه أدقَّ من أسفله؛ لأنَّ أسفله إذا كان واسعًا اجتمعت فيه تلك الفضلاتُ فخرجت بسهولة، ولأنه يأخذُ من الهواء مَلأه ثمَّ يتصاعدُ في مجراه قليلًا قليلًا، حتىٰ يصل إلىٰ القلب وصولًا لا يضرُّه ولا يزعجُه.

ثمَّ فَصَل بين المَنْخِرَين بحاجزٍ بينهما حكمةً منه ورحمةً؛ فإنه لما كان قَصَبةً ومجرًىٰ ساترًا لما ينحدرُ فيه[(٢)] من فضلاتِ الرأس ومجرىٰ النَّفَس الصَّاعد منه= جَعَل في وسطه حاجزًا؛ لئلا ينسدَّ[(٣)] بما يجري فيه فيمنعَ نَشْقَه للنَّفَس، بل إمَّا أن يعتمدَ[(٤)] الفضلاتِ نازلةً من أحد المنفذين ــ في

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه (١٣٠).
(٢) (د، ق): «ساترا لما ينحدر منه». (ت): «سائر الماء ينحدر منه».
(٣) (ح، ن، ت، ق): «يفسد». تحريف.
(٤) (ح، ن): «تعتمد».

الغالب ـ فيبقىٰ الآخرُ للتنفُّس، وإمَّا أن يجري فيهما فينقسم، فلا ينسدَّ الأنفُ جملةً، بل يبقىٰ فيه مدخلٌ[1] للنَّفَس.

وأيضًا؛ فإنه لما كان عضوًا واحدًا وحاسَّةً واحدة، ولم يكن عُضوَين وحاسَّتين كالأذنين والعينين التي ٱقتضت الحكمةُ تعدُّدهما، فإنه ربَّما أصيبت إحداهما أو عَرَضت لها آفةٌ تمنعها من كمالها فتكونُ الأخرىٰ سالمة، فلا تتعطَّل منفعةُ هذا الجنس جملة، وكان وجودُ أنفَين في الوجه شَينًا ظاهرًا، فنَصَب فيه أنفًا واحدًا، وجَعَل فيه منفذَين حَجَز بينهما بحاجزٍ يجري مجرىٰ تعدُّد العينين والأذنين في المنفعة، وهو واحد؛ فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين.

وشقَّ سبحانه للعبد الفمَ في أحسن موضعٍ وأليقه به، وأودع فيه من المنافع وآلات الذَّوق والكلام وآلات الطَّحن والقَطع ما تبهرُ العقولَ عجائبُه؛ فأودَعه اللسانَ الذي هو أحدُ آياته الدَّالَّة عليه، وجعله ترجمانًا لمَلِك الأعضاء مُبِينًا مؤديًا عنه كما جعل الأذنَ رسولًا مؤديًا مبلِّغًا إليه، فهي رسولُه وبريدُه الذي يؤدِّي إليه الأخبار، واللسانُ بريدُه ورسولُه الذي يؤدِّي عنه ما يريد.

واقتضت حكمتُه سبحانه أنْ جَعَل هذا الرسولَ مَصُونًا محفوظًا مستورًا، غير بارزٍ مكشوفٍ كالأذن والعين والأنف؛ لأنَّ تلك الأعضاء لما كانت تؤدِّي من الخارج إليه جُعِلَت بارزةً ظاهرة، ولما كان اللسانُ مؤديًا منه إلىٰ الخارج جُعِل مستورًا[2] مصونًا؛ لعدم الفائدة في إبرازه؛ لأنه لا يأخذ

(١) (ت): «منفذ».

(٢) (ح، ن): «سترا». (ت): «منه جعله مستورا». وسقطت «جعل» من (ق).

من الخارج إلىٰ القلب.

وأيضًا؛ فإنه لما كان أشرفَ الأعضاء بعد القلب، ومنزلتُه منه منزلة تَرْجُمانه ووزيره، ضُرِب عليه سُرادق يستُره ويصونُه، وجُعِل في ذلك السُّرادق كالقلب في الصَّدر.

وأيضًا؛ فإنه مِنْ ألطف الأعضاء وألينها وأشدِّها رطوبة، وهو لا يتصرَّفُ إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به، فلو كان بارزًا صار عُرضةً للحرارة واليُبوسة والنَّشاف المانع له من التصرُّف.

ولغير ذلك من الحِكَم والفوائد.

ثمَّ زيَّن سبحانه الفمَ بما فيه من الأسنان التي هي جمالٌ له وزينة، وبها قِوامُ العبد وغذاؤه، وجَعَل بعضها أرْحاءَ للطَّحن[1]، وبعضها آلةً للقَطع، فأحكم أصولَها، وحَدَّد رؤوسَها، وبيَّض لونها، ورتَّب صفوفَها، متساويةَ الرؤوس، متناسقةَ التَّرتيب، كأنها الدُّرُّ المنظومُ بياضًا وصفاءً وحُسْنًا.

وأحاط سبحانه علىٰ ذلك كلِّه[2] حائطَيْن، وأودعهما من المنافع والحِكَم ما أودعهما، وهما الشَّفتان؛ فحَسَّن لونهما وشكلَهما ووضعَهما وهيأتهما، وجعلهما غطاءً للفم وطَبَقًا له، وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهايةً له، كما جَعَل أقصىٰ الحلق بدايةً له، واللسانَ وما جاوره وَسَطًا، ولهذا كان أكثرُ العمل فيها[3] له؛ إذ هو الواسطة.

---

(١) الأرحاء: جمع رحىٰ.

(٢) «كله» ليست في (ت، ح).

(٣) (ن): «فيهما».

واقتضت حكمتُه أنْ جَعَل الشفتين لحمًا صِرفًا لا عَظمَ فيه ولا عَصَب؛ ليتمكّن بهما من مَصِّ الشَّراب، ويَسْهُل عليه فتحُهما وطَبْقُهما.

وخَصَّ الفكَّ الأسفل بالتحريك؛ لأنَّ تحريكَ الأخفِّ أحسن، ولأنه[1] يشتملُ علىٰ الأعضاء الشريفة فلَم يخاطِر بها في الحركة.

وخلق سبحانه الحناجرَ مختلفةَ الأشكال في الضِّيق والسَّعة، والخشونة والمَلاسة، والصَّلابة واللِّين، والطُّول والقِصَر؛ فاختلفَت بذلك الأصواتُ أعظمَ ٱختلاف، ولا يكادُ يشتبهُ صوتان إلا نادرًا.

ولهذا كان الصحيحُ قبول شهادة الأعمىٰ[2]؛ لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميِّزُ البصيرُ بينهم بِصُوَرهم، والاشتباهُ العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصُّوَر.

وزيَّن سبحانه الرأسَ بالشَّعر، وجَعَله لباسًا له؛ لاحتياجه إليه، وزيَّن الوجه بما أنبت فيه من الشُّعور المختلفة الأشكال والمقادير، فزيَّنه بالحاجبين، وجعلهما وقايةً لما ينحدر[3] مِن بَشَرَة الرأس إلىٰ العينين، وقَوَّسهما، وأحسنَ خطَّهما، وزيَّن أجفانَ العينين بالأهداب، وزيَّن الوجه أيضًا باللِّحية، وجعلها كمالًا ووقارًا ومهابةً للرَّجُل، وزيَّن الشفتين بما أنبت

---

(١) أي: الفك الأعلىٰ.

(٢) فيما طريقُه السمع، إذا عَرَفَ الصوت. انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٢١)، و«الطرق الحكمية» (٥٥١)، و«أيمان القرآن» (٦١٤).
وانظر للخلاف في قبول شهادته: «أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢٢٦)، و«المحلى» (٩/ ٤٣٣)، و«المغني» (١٤/ ١٧٨).

(٣) (ن): «يتحدر».

فوقهما من الشارب وتحتهما من العَنْفَقَة.

وكذلك خَلْقُه سبحانه لليدين اللتين هما آلةُ العبد وسلاحُه ورأسُ ماله ومعاشُه[1]، فطوَّلهما بحيث يَصِلان إلىٰ ما شاء من بدنه، وعرَّض الكفَّ ليتمكَّن بها من القبض والبسط، وقسَّم فيه الأصابعَ الخمس، وقسَّم كلَّ إصبعٍ بثلاث أناملَ والإبهامَ باثنتين، ووضعَ الأصابعَ الأربعةَ في جانبٍ والإبهامَ في جانب؛ لتدور الإبهامُ علىٰ الجميع؛ فجاءت علىٰ أحسن وضعٍ صَلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال، ولو ٱجتمع الأولون والآخِرون علىٰ أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعًا آخر للأصابع سوىٰ ما وُضِعَت عليه لم يجدوا إليه سبيلًا.

فتبارك من لو شاء لسوَّاها وجَعَلها طَبَقًا واحدًا كالصَّفيحة، فلم يتمكَّن العبدُ بذلك من مصالحه وأنواع تصرُّفاته ودقيق الصَّنائع والخطِّ وغير ذلك، فإن بَسَط أصابعه كانت طَبَقًا يضعُ عليه ما يريد، وإن ضمَّها وقبضَها كانت دبُّوسًا[2] وآلةً للضَّرب، وإن جَعَلها بين الضَّمِّ والبسط كانت مِغْرَفةً له يتناولُ بها ويمسكُ فيها ما يتناولُه.

وركَّبَ الأظفارَ علىٰ رؤوسها زينةً لها وعِمادًا[3] ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدَّقيقة التي لا ينالها جسمُ الأصبع، وجَعَلها سلاحًا لغيره من الحيوان والطَّير، وآلةً لمعاشه، وليَحُكَّ الإنسانُ بها بدنه عند الحاجة؛ فالظُّفرُ الذي هو أقلُّ الأعضاء وأحقرُها لو عَدِمَه الإنسانُ ثمَّ ظهرت به حِكَّةٌ

(١) (ح، ن): «ورأس مال معاشه».

(٢) الدبوس: هراوةٌ مدملكة الرأس، كما سيأتي (ص: ١٠٣٥).

(٣) (د، ق، ت): «واعتمادا». والمثبت من (ن، ح) و«الإحياء».

لاشتدَّت حاجتُه إليه، ولم يَقُم مقامه شيءٌ في حكِّ بدنه، ثمَّ هدىٰ[1] اليدَ إلىٰ موضع الحكِّ حتىٰ تمتدَّ إليه ولو في النَّوم والغفلة من غير حاجةٍ إلىٰ طلب، ولو استعان بغيره لم يَعْثُر علىٰ موضع الحكِّ إلا بعد تعبٍ ومشقَّة!

ثمَّ انظر إلىٰ الحكمة البالغة في جَعل عظام أسفل البدن غليظةً قويَّة؛ لأنها أساسٌ له، وعظام أعاليه دونها في الثَّخانة والصَّلابة؛ لأنها محمولة.

ثمَّ انظر كيف جَعَل الرَّقبة مَرْكبًا للرأس، وركَّبها من سبع خَرَزاتٍ[2] مجوَّفاتٍ مستديرات، ثمَّ طبَّق بعضها علىٰ بعض، وركَّب كلَّ خَرَزةٍ علىٰ صاحبتها[3] تركيبًا محكمًا متقنًا حتىٰ صارت كأنها خرزةٌ واحدة، ثمَّ ركَّب الرَّقبة علىٰ الظَّهر والصَّدر، ثمَّ ركَّب الظَّهر من أعلاه إلىٰ منتهىٰ عَظم العَجُز من أربعٍ وعشرين خرزةً مركَّبةً بعضها في بعضٍ هي مَجْمَعُ أضلاعه والتي تمسكُها أن تنحَلَّ وتنفصل، ثمَّ وَصَل تلك العظام بعضها ببعض؛ فوصل عظامَ الظَّهر بعظام الصَّدر، وعظامَ الكتفين بعظام العَضُدَين، والعَضُدَين بالذِّراعين، والذِّراعين بالكفِّ والأصابع.

وانظر كيف كسا العظامَ العريضةَ كعظام الظَّهر والرأس كسوةً من اللحم تناسبُها، والعظامَ الدَّقيقةَ كسوةً تناسبها كالأصابع، والمتوسِّطةَ كذلك كعظام الذِّراعين والعَضُدَين، فهو مركَّبٌ علىٰ ثلاث مئةٍ وستِّين عظمًا؛ منها مئتان وثمانيةٌ وأربعون مفاصل، وباقيها صغارٌ حُشِيَت خِلال المفاصل، فلو زادت

---

(١) (ق، د): «يهدي».

(٢) خَرَزُ الظَّهر: فَقارُه. وكلُّ فقرةٍ من الظهر والعنق خَرَزة. «اللسان» (خرز).

(٣) «على صاحبتها» ساقطة من (ح، ن).

عظمًا واحدًا لكان مَضرَّةً علىٰ الإنسان يحتاجُ إلىٰ قَلْعِه[1]، ولو نقصت عظمًا واحدًا كان نقصانًا يحتاجُ إلىٰ جَبْره.

فالطَّبيبُ ينظرُ في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرفَ وجه العلاج في جَبْرِها، والعارفُ ينظرُ فيها ليستدلَّ بها علىٰ عظمة باريها وخالقها، وحكمته وعلمه ولُطْفِه. وكم بين النظرَين!

ثمَّ إنه سبحانه رَبَط تلك الأعضاء والأجزاءَ بالرِّباطات، فشدَّ بها أسْرَها، وجعلها كالأوتاد[2] تمسكُها وتحفظها، حتىٰ بلغ عددُها[3] إلىٰ خمس مئةٍ وتسعةٍ وعشرين رباطًا، وهي مختلفةٌ في الغِلَظِ والدِّقَّة، والطُّول والقِصَر، والاستقامة والانحناء، بحسب ٱختلاف مواضعها ومَحَالِّها.

فجعل منها أربعةً وعشرين رباطًا آلةً لتحريك العين وفَتحِها وضمِّها وإبصارها، لو نقصت منهنَّ رباطًا واحدًا ٱختلَّ أمرُ العين، وهكذا[4] لكلِّ عضوٍ من الأعضاء رباطاتٌ هي له كالآلات التي بها يتحرَّكُ ويتصرَّفُ ويفعلُ كلَّ ذلك. صُنْعَ الرَّبِّ الحكيم، وتقديرَ العزيز العليم، في قطرةٍ من ماءٍ مَهين، فويلٌ للمكذِّبين، وبُعدًا للجاحدين.

ومن عجائب خَلقِه أنه جَعَل في الرأس ثلاثَ خزائنَ نافذًا بعضُها إلىٰ بعض؛ خِزانةً في مُقَدَّمه، وخِزانةً في وسطه، وخِزانةً في آخره، وأودع تلك الخزائنَ من أسراره ما أودَعها من الذِّكر والفِكر والتعقُّل.

---

(١) (ن): «قطعه».

(٢) في الأصول: «كالأوتار». والمثبت أشبه.

(٣) (ق، ح): «بلغ عدها».

(٤) (ق، ت، د): «وهذا».

ومن عجائب خَلقِه ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهَد؛ كالقلب والكبد والطِّحال والرِّئة والأمعاء والـمَثانة، وسائر ما في باطنه[1] من الآلات العجيبة، والقُوىٰ المتعدِّدة المختلفة المنافع.

فأما القلبُ، فهو الملكُ المستعمِلُ لجميع[2] آلات البدن، المستخدِمُ لها، فهو محفوفٌ بها مَحْشودٌ مَخْدومٌ مستقرٌّ في الوسط، وهو أشرفُ أعضاء البدن، وبه قِوامُ الحياة، وهو منبعُ الرُّوح الحيوانيِّ[3] والحرارة الغريزيَّة، وهو معدنُ العقل والعلم والحلم، والشجاعة والكرم والصَّبر والاحتمال، والحبِّ والإرادة، والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميعُ الأعضاء الظَّاهرة والباطنة وقُواها إنما هي جُندٌ من أجناد القلب؛ فإنَّ العينَ طليعتُه ورائدُه الذي يكشفُ له المرئيَّات، فإن رأت شيئًا أدَّتهُ إليه، ولشدَّة الارتباط الذي بينها وبينه إذا ٱستقرَّ فيه شيءٌ ظهر فيها، فهي مرآتُه المترجِمةُ للناظر ما فيه[4]، كما أنَّ اللسانَ تَرْجُمانُه المؤدِّي للسَّمع ما فيه.

ولهذا كثيرًا ما يقرنُ سبحانه في كتابه بين هذه الثَّلاث[5]، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨].

---

(١) (ت، ق): «بطنه».

(٢) (د، ق، ت): «المشتغل بجميع». ولعلها: «المستغل»، بالمهملة.

(٣) (ق، ت، د): «الروحاني». والصواب المثبت. انظر: «أيمان القرآن» (٥٩٢، ٥٩٤)، و«زاد المعاد» (٤/ ١٧).

(٤) انظر ما مضى (ص: ٢٩٠) والتعليق عليه.

(٥) انظر: «أيمان القرآن» (٦١٤).

وقد تقدَّم ذلك[1].

وكذلك يقرنُ بين القلب والبصر[2]، كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله في حقِّ رسوله محمَّد ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

وكذلك الأذنُ هي رسولُه المؤدِّي إليه، وكذلك اللسانُ تَرْجُمانُه.

وبالجملة؛ فسائر الأعضاء خَدَمُه وجنودُه، وقال النبيُّ ﷺ: «**ألا إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صلَحت صلَح لها سائرُ الجسد، وإذا فسَدت فسَد لها سائرُ الجسد، ألا وهي القلب**»[3].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «القلبُ مَلِكٌ، والأعضاءُ جنودُه، فإن طابَ المَلِكُ طابت جنودُه، وإذا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَت جنودُه»[4].

وجُعِلَت الرئةُ له كالمِرْوَحة تُرَوِّحُ عليه دائمًا؛ لأنه أشدُّ الأعضاء حرارةً، بل هو منبعُ الحرارة.

وأما الدِّماغُ ـ وهو المُخُّ ـ، فإنه جُعِل باردًا، واختُلِفَ في حكمة ذلك[5]:

---

(١) (ص: ٢٩٣).

(٢) كما تقدم (ص: ٢٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أخرجه معمر في «الجامع» (١١/ ٢٢١)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١/ ٣٥٠) بإسنادٍ جيد.
ورُوِيَ مرفوعًا، ولا يصح. انظر: «الكامل» (٢/ ٢١٥).

(٥) انظر: «القانون» (٢/ ٦)، و«شرح تشريح القانون» لابن النفيس (١١٤).

فقالت طائفة: إنما كان الدِّماغُ باردًا لتبريد الحرارة التي في القلب؛ ليردَّها عن الإفراط إلىٰ الاعتدال.

وردَّت طائفةٌ هذا[1]، وقالت: لو كان كذلك لم يكن الدِّماغُ بعيدًا عن القلب، بل كان ينبغي أن يحيط به كالرِّئة، أو يكون قريبًا منه في الصَّدر؛ ليكسِرَ حرارتَه.

قالت الفرقةُ الأولىٰ: بُعْدُ الدِّماغ من القلب لا يمنعُ ما ذكرناه من الحكمة؛ لأنه لو قَرُبَ منه لغلبَته حرارةُ القلب بقوَّتها، فجُعِلَ البُعدُ بينهما بحيثُ لا يتفاسَدان، وتعتدل[2] كيفيةُ كلِّ واحدٍ منهما بكيفية الآخر، وهذا بخلاف الرِّئة، فإنها آلةٌ للتَّرويح علىٰ القلب لم تُجْعَل لتعديل حرارته.

وتوسَّطت فرقةٌ أخرىٰ وقالت: بل المخُّ حارٌّ لكنه فاترُ الحرارة، وفيه تبريدٌ بالخاصيَّة، فإنه مبدأٌ للذهن، ولهذا كان الذِّهنُ يحتاجُ إلىٰ موضعٍ ساكنٍ قارٍّ، صافٍ عن الأقذاء[3] والكَدَر، خالٍ من الجَلَبة والزَّجَل[4].

ولذلك تكونُ جودةُ الفِكْر والتذكُّرُ واستخراجُ الصَّواب عند سكون البدن، وفُتور حركاته، وقلَّة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلُح لها القلب، وكان الدِّماغُ معتدلًا في ذلك صالحًا له.

ولذلك تجودُ هذه الأفعالُ في الليل، وفي المواضع الخالية، وتفسُد

---

(١) (ت): «هذا القول».

(٢) (ت): «وتعدل».

(٣) (ح): «الأقذار».

(٤) وهو رفع الصوت. وفي (د، ق، ت): «والدخل»، تحريف.

عند ٱلتهاب نار الغضب والشهوة، وعند الهمِّ الشديد[1]، ومع التَّعب والحركات القوية البدنية والنفسانية.

وهذا بحثٌ متصلٌ بقاعدةٍ أخرىٰ، وهي: أنَّ الحواسَّ والعقل، مبدؤها القلبُ أو الدِّماغ؟[2]

فقالت طائفة: مبدؤها كلِّها القلب، وهي مرتبطةٌ به، وبينه وبين الحواسِّ منافذُ وطرق.

قالوا: وكلُّ واحدٍ من هذه الأعضاء التي هي آلاتُ الحواسِّ له ٱتصالٌ بالقلب بأعصابٍ وغير ذلك، وهذه الأعصابُ تخرجُ من القلب إلىٰ أن تأتي إلىٰ كلِّ واحدٍ من هذه الأجسام[3] التي فيها هذه الحواسُّ، ومنشأ هذه الأعضاء من القلب، وهو مركَّبٌ من أشياء تُشاكِل جميعَ هذه الأجسام التي فيها هذه الحواسُّ[4].

قالوا: فالعينُ إذا أبصرت شيئًا أدَّته بالآلة التي فيها إلىٰ القلب؛ لأنَّ هذه الآلة متصلةٌ منها إلىٰ القلب، والسَّمعُ إذا أحسَّ صوتًا أدَّاه إلىٰ القلب، وكذلك كلُّ حاسَّة.

---

(١) (ن): «وعند الهم والشدائد».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٩/ ٣٠٣)، و«المسودة» (٩٨٢)، و«أيمان القرآن» (٦١٢)، و«المقدمات والممهدات» (٣/ ٣٣٤)، و«شرح الكوكب المنير» (١/ ٨٣) وحواشيه، و«أضواء البيان» للشنقيطي (٥/ ٧١٥)، ومجموع آثاره (٢٣ــ الفتاوى)، و«إزالة الستار» لابن عثيمين (٦٦)، وغيرها.

(٣) (ت): «تخرج من القلب من أشياء تشاكل جميع الأجسام».

(٤) من قوله: «ومنشأ هذه الأعضاء» إلى هنا من (د، ق).

ثمَّ أوردوا علىٰ أنفسهم سؤالًا، فقالوا: إن قيل: كيف يجوزُ أن يكون عضوٌ واحدٌ علىٰ ضروبٍ من الامتزاج يُمِدُّ عدَّة حواسَّ مختلفة، وأجسامُ هذه الحواسِّ مختلفة، وقوَّةُ كلِّ حاسَّةٍ مخالفةٌ لقوَّة الحاسَّة الأخرىٰ؟

وأجابوا عن ذلك: بأنَّ جميعَ العروق التي في البدن كلها متصلةٌ بالقلب، إما بأنفسها وإما بواسطة، فما مِن عِرقٍ ولا عُضوٍ إلا وله اتصالٌ بالقلب اتصالًا قريبًا أو بعيدًا.

قالوا: وينبعثُ منه في تلك العروق والمجاري إلىٰ كلِّ عضوٍ ما يناسبُه ويُشاكِلُه، فينبعثُ منه إلىٰ العينين ما يكونُ منه حِسُّ[1] البصر، وإلىٰ الأذنين ما يُدرِكُ به المسموعات، وإلىٰ اللَّحم ما يكونُ منه حِسُّ اللَّمس، وإلىٰ الأنف ما يكون منه حِسُّ الشَّمِّ، وإلىٰ اللسان ما يكونُ منه حِسُّ الذَّوق، وإلىٰ كلِّ ذي قوَّةٍ ما يُمِدُّ قوَّتَه ويحفظُها، فهو المُمِدُّ لهذه الأعضاء والحواسِّ والقُوىٰ؛ ولهذا كان الرأيُ الصحيحُ أنه أوَّلُ الأعضاء تكونًا[2].

قالوا: ولا ريب أنَّ مبدأ القوَّة العاقلة منه، وإن كان قد خالفَ في ذلك آخرون، وقالوا: بل العقلُ في الرأس؛ فالصوابُ أنَّ مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعَه وثمرتَه في الرأس، والقرآنُ قد دلَّ علىٰ هذا بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولم يُرِد بالقلب هنا مُضغةَ اللحم المشتركةَ بين الحيوانات، بل المرادُ ما فيه من العقل واللُّبِّ.

---

(١) (ت): «حسن». وهكذا في المواضع التالية.

(٢) (ح، ن): «تكوينا».

ونازعهم في ذلك طائفةٌ أخرىٰ، وقالوا: مبدأ هذه الحواسِّ إنما هو الدِّماغ، وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصابٌ أو عُروق، وقالوا: هذا كذبٌ علىٰ الخِلْقَة.

والصوابُ التوسُّطُ بين الفريقين، وهو أنَّ القلب ينبعثُ منه قوَّةٌ إلىٰ هذه الحواسِّ، وهي قوَّةٌ معنويةٌ لا تحتاجُ في وصولها إليها إلىٰ مَجَارٍ مخصوصةٍ وأعصابٍ تكونُ حاملةً لها؛ فإنَّ وصول القُوىٰ إلىٰ هذه الحواسِّ والأعضاء لا تتوقَّفُ إلا علىٰ قبولها واستعدادها وإمداد القلب، لا علىٰ مَجَارٍ وأعصاب.

وبهذا يزولُ الالتباسُ في هذا المقام الذي طال فيه الكلام، وكَثُر فيه النزاعُ والخصام، والله أعلم، وبه التوفيقُ للصَّواب.

والمقصودُ التنبيهُ علىٰ أقلِّ القليل من وجوه الحكمة التي في خَلْقِ الإنسان، والأمرُ أضعافُ أضعاف[1] ما يخطرُ بالبال، أو يجري في المقال، وإنما فائدةُ ذكر هذه الشَّذْرَة ـ التي هي كَلا شيءٍ بالنسبة إلىٰ ما وراءها ـ التنبيه.

وإذا نظر العبدُ إلىٰ غذائه فقط، في مَدْخَله ومستقرِّه ومخرجه، رأىٰ فيه العِبَر والعجائب؛ كيف جُعِلَت له آلةٌ يتناولُه بها، ثم بابٌ يَدْخُل منه، ثمَّ آلةٌ تقطِّعُه صغارًا، ثمَّ طاحونٌ يطحنُه، ثمَّ أُعِينَ بماءٍ يعجنُه، ثمَّ جُعِل له مجرًى وطريقٌ إلىٰ جانب مجرىٰ النَّفَس، ينزلُ هذا ويصعدُ هذا، فلا يلتقيان مع غاية القُرب.

ثمَّ جَعَل له حوايا[2] وطرقًا تُوصِلُه إلىٰ المعدة، فهي خِزانتُه وموضعُ

---

(١) ليست في (ح، ق، ت).

(٢) يريد: المريء. والحوايا: الأمعاء. «اللسان» (حوا).

ٱجتماعه، ولها بابان: بابٌ أعلىٰ يدخلُ منه الطَّعام، وبابٌ أسفلُ يخرجُ منهُ ثُفْلُه[1]، والبابُ الأعلىٰ أوسعُ من الأسفل؛ إذ الأعلىٰ مَدْخلٌ للحاصل، والأسفلُ مَصْرِفٌ للضَّارِّ منه، والأسفلُ منطبقٌ دائمًا ليستقرَّ الطعامُ في موضعه، فإذا ٱنتهىٰ الهضمُ فإن ذلك الباب ينفتحُ إلىٰ ٱنقضاء الدَّفع، ويسمَّىٰ البوَّابَ لذلك، والأعلىٰ يسمَّىٰ فَمَ المعدة، والطعامُ ينزلُ إلىٰ المعدة مُنْكبِسًا[2]، فإذا ٱستقرَّ فيها ٱنماعَ وذاب.

ويحيطُ بالمعدةِ مِن داخلها وخارجها حرارةٌ ناريَّة، بل ربما تزيدُ علىٰ حرارة النَّار، ينضجُ بها الطعامُ فيها كما ينضجُ الطعامُ في القِدر بالنَّار المحيطة به، ولذلك تذيبُ ما هو مستحجِرٌ كالحصىٰ وغيره، حتىٰ تتركه مائعًا، فإذا أذابتهُ علا صَفْوُه إلىٰ فوق، ورَسَا كدرُه إلىٰ أسفل.

ومن المعدة عروقٌ متصلةٌ بسائر البدن يُبْعَثُ فيها معلومُ كلِّ عضوٍ[3] وقِوامُه بحسب ٱستعداده وقبوله، فيُبْعَثُ أشرفُ ما في ذلك وألطفُه وأخفُّه إلىٰ الأرواح[4]؛ فينبعثُ[5] إلىٰ البصر بصرًا وإلىٰ السَّمع سمعًا وإلىٰ الشمِّ

(١) ثُفْلُ كلِّ شيء: ما استقرَّ تحته من كَدَرِه. «اللسان» (ثفل).

(٢) (ت): «متملسا». (ق، د): «متلمسا»، وفوقها في (د) بخطٍّ دقيق: «كذا». (ن): «متكيمسا». والكيموس: لفظٌ سرياني، يعني: الخِلْط. والمراد به: الخلاصة الغذائية. انظر: «التكملة» للصغاني (كمس)، و«اللسان»، و «المعجم الوسيط». ولا يظهر أنه المقصود هنا.

(٣) (ت): «كل عرق وعضو».

(٤) وهي أجسامٌ لطيفةٌ تحمل القوىٰ، وليست النفس. انظر: «الموجز» لابن النفيس (٦٨)، و«زاد المعاد» (٤/ ١٧، ٢٢٥).

(٥) (ق، ت): «فيبعث». وفي (ن): «بصر... سمع... شم» بالرفع.

شمًّا وإلىٰ كلِّ حاسَّةٍ بحسبها، فهذا ألطفُ ما يتولَّدُ عن الغذاء، ثـمَّ ينبعـثُ منه إلىٰ الـدِّماغ مـا يناسـبُه في اللَّطافـة والاعتـدال، ثـمَّ ينبعـثُ مـن البـاقي إلىٰ الأعـضاء في تلـك المجـاري بحـسبها، وينبعـثُ منـه إلىٰ العظـام والـشَّعر والأظفار ما يغذِّيها ويحفظُها.

فيكونُ الغذاءُ داخلًا إلىٰ المعـدة مـن طُـرقٍ ومَـجارٍ، وخارجًـا منهـا إلىٰ الأعضاء من طُرقٍ ومَـجارٍ؛ هـذا واردٌ إليهـا وهـذا صـادرٌ عنهـا؛ حكمـةٌ بالغـةٌ ونعمةٌ سابغة.

ولما كان الغذاءُ إذا ٱستحال في المعدة ٱستحال دمًـا ومِـرَّةً سـوداءَ ومِـرَّةً صفراءَ وبَلْغمًا[1]، ٱقتضت حكمتُه سبحانه وتعالىٰ أن جَعَـل لكـلِّ واحـدٍ مـن هـذه الأخـلاط مَـصرِفًا ينـصبُّ إليـه ويجتمـعُ فيـه، ولا ينبعـثُ إلىٰ الأعـضاء الشريفة إلا أكملُه؛ فوضع الـمَرارةَ مَصَبًّا للمِرَّة الصَّفراء، ووضع الطِّحالَ مقرًّا للمِرَّة السَّوداء، والكبدُ تمتصُّ أشرفَ مـا في ذلـك، وهـو الـدَّم، ثـمَّ تبعثُه إلىٰ جميع البدن من عِرقٍ واحدٍ ينقسمُ علىٰ مجارٍ كثيرة، يوصِلُ إلىٰ كـلِّ واحـدٍ من الشُّعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكونُ به قِوامُه.

ثمَّ إذا نظرتَ إلىٰ مـا فيـه[2] مـن القُـوىٰ الباطنـة والظَّـاهرة المختلفـة في

---

(١) وهي أخلاطُ البدن الأربعة، التي كـان يعتقـد القـدماءُ أن البـدن ينـشأ مِزَاجُـه ــ وهـو الاستعدادُ الجسميُّ العقليُّ الخاصُّ ـ عنها، فمن اعتدلت فيه كَمُلَت صـحَّته، وبقـدر الزيادة والنقصان فيهـا عـن حـدِّ الاعتـدال يـدخل الـسَّقم. انظر: «المعجـم الوسـيط» (مزج)، وما يأتي (ص: ٧١٤، ٧٤١، ٧٨٠، ١٢٨٥).

(٢) أي: الإنسان.

أنفسها ومنافعها، رأيتَ العجبَ العُجاب[1]؛ كقوَّة سمعه وبصره، وشمِّه وذوقه ولمسه، وحبِّه وبغضه، ورضاه وغضبه، وغير ذلك من القُوىٰ المتعلقة بالإدراك والإرادة، وكذلك القُوىٰ المتصرِّفة في غذائه؛ كالقوَّة الـمُنْضِجة له، وكالقوَّة الماسِكة له، والدَّافعة له إلىٰ الأعضاء، والقوَّة الهاضمة له بعد أخذِ الأعضاء حاجتها منه، إلىٰ غير ذلك من عجائب خِلقته الظَّاهرة والباطنة.

فصل[2]

فارجِع الآن إلىٰ النُّطفة، وتأمَّل حالها أوَّلًا وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو ٱجتمع الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يخلقوا لها سمعًا أو بصرًا، أو عقلًا أو قدرة، أو علمًا أو روحًا، بل عظمًا واحدًا مِنْ أصغر عظامها، بل عِرقًا من أدقِّ عروقها، بل شعرةً واحدة= لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كلُّه آثارُ صُنع الله الذي أتقن كلَّ شيءٍ في قطرةٍ من ماءٍ مَهين.

فمَن هذا صُنعُه في قطرة ماء، فكيف صُنعُه في ملكوت السَّموات، وعُلوِّها، وسَعَتِها، واستدارتها، وعِظَم خَلْقِها، وحُسْن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟!

فلا ذرَّة فيها تنفكُّ عن حكمة، بل هي أحكمُ خلقًا، وأتقنُ صنعًا، وأجمعُ للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلىٰ عجائب السَّموات؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا

(١) (ت): «رأيت العجائب».

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٤٠).

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ فبدأ بذكر خلقِ السَّموات، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وهذا كثيرٌ في القرآن.

فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ ما تحت السَّموات ـ بالإضافة إلىٰ السَّموات ـ كقطرةٍ في بَحْر، ولهذا قَلَّ أن تجيء سورةٌ في القرآن إلا وفيها ذِكرُها؛ إما إخبارًا عن عظمتها وسَعَتها، وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلىٰ النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلُّوا بها علىٰ عظمة بانيها[1] ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخَلْقها علىٰ ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيَّته لها علىٰ وحدانيَّته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالًا منه بحُسْنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفُطور فيها علىٰ تمام حكمته وقدرته.

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصرُ عقولُ البشر عن قليلها، فكم مِن قسَمٍ في القرآن بها؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]،

---

(١) (ت): «عظمة باريها وبانيها».

وهي الكواكبُ التي تكونُ خُنَّسًا عند طلوعها، جوارٍ في مجراها ومسيرها، كُنَّسًا عند غروبها؛ فأقسمَ بها في أحوالها الثَّلاثة[١].

ولم يُقْسِم في كتابه بشيءٍ من مخلوقاته أكثر من السَّماء والنُّجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسمُ بما يقسمُ به من مخلوقاته لتضمُّنه الآياتِ والعجائبَ الدالَّة عليه[٢]، وكلما كان أعظم آيةً وأبلغَ في الدَّلالة كان إقسامُه به أكثرَ من غيره.

ولهذا يعظِّمُ سبحانه هذا القَسَم؛ كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦]، وأظهرُ القولين أنه قَسَمٌ بمواقع هذه النُّجوم التي في السَّماء[٣]؛ فإنَّ ٱسمَ النُّجوم عند الإطلاق إنما ينصرفُ إليها.

وأيضًا؛ فإنه لم تَجْرِ عادتُه سبحانه باستعمال النُّجوم في آيات القرآن، ولا في موضعٍ واحدٍ من كتابه، حتىٰ تُحْمَل عليه هذه الآية، وجَرَت عادتُه سبحانه باستعمال النُّجوم في الكواكب في جميع القرآن.

وأيضًا؛ فإنَّ نظيرَ الإقسام بمواقعها هنا إقسامُه بِهُوِيِّ النَّجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ .

وأيضًا؛ فإنَّ هذا قولُ جمهور أهل التفسير.

---

(١) انظر: «أيمان القرآن» (١٨٤، ٣٢٢).

(٢) انظر: «أيمان القرآن» (٥، ٨٧، ١٨٨، ٤٢٩).

(٣) انظر: ما سيأتي (ص: ١٣٦٧) والتعليق عليه.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه يقسمُ بالقرآن نفسِه لا بوصوله إلىٰ عباده، هذه طريقةُ القرآن؛ قال الله تعالىٰ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١ ـ ٢]، ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٢، الدخان: ١ – ٢]، ونظائره.

والمقصود أنه سبحانه إنما يقسمُ من مخلوقاته بما هو من آياته الدَّالَّة علىٰ ربوبيته ووحدانيته.

وقد أثنىٰ سبحانه في كتابه علىٰ المتفكِّرين في خلق السَّموات والأرض، وذَمَّ المُعْرِضين عن ذلك؛ فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وتأمَّل خلقَ هذا السَّقف الأعظم ـ مع صلابته وشدَّته ووَثاقته ـ مِن دُخان، وهو بخارُ الماء؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ – ٢٨]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فانظر إلىٰ هذا البناء الشَّديد العظيم الواسع الذي رَفَع سَمْكَه أعظمَ ٱرتفاع، وزيَّنه بأحسن زينة، وأودعه العجائبَ والآيات، وكيف ٱبتدأ خَلقَه من بخارٍ ٱرتفع من الماء وهو الدُّخان.

فسُبحانَ مَنْ لا يَقْدِرُ الخلقُ قَدْرَه ... ومَنْ هو فوق العرشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ[1]

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصَّلت في «الزهرة» (٤٩٨)، وديوانه المجموع (٤٢).

لقد تعرَّف إلىٰ خَلْقه بأنواع التَّعرُّفات، ونَصَب لهم الدَّلالات، وأوضحَ لهم الآيات البيِّنات؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

* * *

فارجِع البصرَ إلىٰ السَّماء[1] وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها، وطلوعها وغروبها، وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودُؤوبها في الحركة علىٰ الدَّوام مِنْ غير فُتورٍ في حركتها ولا تغيُّرٍ في سَيْرها، بل تجري في منازل قد رُتِّبت لها بحسابٍ مقدَّرٍ لا يزيدُ ولا ينقصُ إلىٰ أن يَطْوِيها فاطرُها وبديعُها.

وانظر إلىٰ كثرة كواكبها، واختلاف ألوانها ومقاديرها، فبعضُها يميل إلىٰ الحُمْرة، وبعضُها إلىٰ البياض، وبعضُها إلىٰ اللون الرَّصاصيِّ.

ثمَّ انظر إلىٰ مسير الشمس في فَلَكها في مدَّة سنة، ثمَّ هي في كلِّ يومٍ تطلعُ وتغربُ بسَيرٍ سخَّرها له خالقُها، لا تتعدَّاه ولا تَقْصُرُ عنه، ولولا طلوعُها وغروبها لما عُرِفَ الليلُ والنهارُ ولا المواقيت، ولأطبقَ الظلامُ[2] علىٰ العالم أو الضياء، ولم يتميَّز وقتُ المَعاش عن وقت السُّبات والراحة.

وكيف قدَّر لها العزيزُ العليمُ سَفَرين متباعدَين:

أحدهما: سفرُها صاعدةً إلىٰ أوْجِها[3].

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٤٥).

(٢) (ت): «ولا نطبق الظلام». والمثبت من باقي النسخ و«الإحياء».

(٣) الأوج: العُلو. معرَّب «أوگ» بالكاف الفارسية. انظر: «برهان قاطع» (١/ ١٨١)، =

والثاني: سفرُها هابطةً إلىٰ حضيضها.

تنتقلُ في منازل هذا السَّفر منزلةً منزلةً حتىٰ تبلُغ غايتَها منه، فأحدَث ذلك السَّفرُ بقدرة الربِّ الخالق القادر[1] ٱختلافَ الفصول من الصَّيف والشتاء والخريف والربيع، فإذا ٱنخفض سيرُها عن وسط السَّماء بَرَدَ الهواءُ وظهَر الشتاء، وإذا ٱستوت في وسط السَّماء ٱشتدَّ القَيظ، وإذا كانت بين المسافتين ٱعتدَل الزَّمان، وقامت مصالحُ العباد[2] والحيوان والنَّبات بهذه الفصول الأربعة، واختلفت بسببها الأقوات، وأحوالُ النبات والألوان، ومنافعُ الحيوان والأغذية وغيرها.

وانظر إلىٰ القمر وعجائب آياته؛ كيف يُبْدِيه اللهُ كالخيط الدَّقيق، ثمَّ يتزايدُ نُورُه ويتكاملُ شيئًا فشيئًا كلَّ ليلةٍ حتىٰ ينتهي إلىٰ إبداره وكماله وتمامه، ثمَّ يأخذُ في النقصان حتىٰ يعود إلىٰ حالته الأولىٰ؛ ليَظهَر من ذلك مواقيتُ العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزت به الأشهرُ والسِّنين[3]، وقام به حِسَابُ العالم، مع ما في ذلك من الحِكَم والآيات والعِبَر التي لا يحصيها إلا الله.

= و«مفاتيح العلوم» (٢٢١)، و«الألفاظ الفارسية» لأدي شير (١٣).

وذهب الخفاجي في «شفاء العليل» (١٥) وتبعه المحبِّي في «قصد السبيل» (١/ ٢٢٢) إلى أنه معرَّب «أود». قال شيخنا الإصلاحي: وهو خطأ. و«أود» بالفارسية تعني العِوَج.

(١) (ح، ن): «الرب القادر».

(٢) (ت): «واستقامت مصالح العباد».

(٣) (ق، د، ت): «فتميزت بين الأشهر والسنين».

وبالجملة؛ فما مِنْ كوكبٍ من الكواكب إلا وللربِّ تبارك وتعالىٰ في خلقه حِكَمٌ كثيرة، ثم في مقداره، ثم في شكله ولونه، ثم في موضعه[1] من السَّماء وقُربه من وسطها وبُعْده، وقُربه من الكوكب الذي يليه وبُعْده منه.

وإذا أردتَ معرفة ذلك علىٰ سبيل الإجمال فقِسْهُ بأعضاء بدنك واختلافها، وتفاوتِ ما بين المتجاورات منها وبُعْد ما بين المتباعدات، وأشكالها ومقاديرها، وتفاوت منافعها، وما خُلِقَت له. وأيُّ نسبةٍ لذلك إلىٰ عِظَم السَّموات وكواكبها وآياتها!

وقد ٱتفق أربابُ الهيئة علىٰ أنَّ الشمس بقَدْر الأرض مئة مرَّةٍ ونيِّفًا وستِّين مرَّة، والكواكبُ التي نراها كثيرٌ منها أصغرُها بقَدْر الأرض، وبهذا يُعْرَفُ ٱرتفاعُها وبُعْدُها.

وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي[2]: «**إنَّ بين الأرض والسَّماء مسيرةَ خمس مئة عام، وبين كلِّ سماءين كذلك**».

---

(١) (ق، ت، د): «في شكله وكونه في موضعه».

(٢) (٣٢٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٨٧)، وغيرهم بإسنادٍ منقطع. وهو حديثٌ طويل، وفي آخره نكارة.
قال الترمذي: «هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه. ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد، قالوا: الحسن لم يسمع من أبي هريرة».
وبذا أعلَّه البيهقي، والجورقاني في «الأباطيل» (١/ ٧٠)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٣). وانظر: «العلو» للذهبي (٧٤)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤١).
وللقَدر الذي ذكره المصنف منه شواهدُ من حديث العباس وأبي سعيد وأبي ذر وابن مسعود رضي الله عنهم.

وأنت ترىٰ الكوكبَ كأنه واقفٌ لا يسير[1]، وهو من أوّل[2] جزءٍ من طلوعه إلىٰ تمام طلوعه يكونُ فَلَكُه قد طلَع بقَدْر مسافة الأرض مئة مرَّةٍ أو أكثر، وذلك بقَدْر لحظةٍ واحدة؛ لأنَّ الكوكبَ إذا كان بقَدْر الأرض مئة مرَّةٍ ـ مثلًا ـ ثمَّ سار في اللحظة من موضعٍ إلىٰ موضعٍ فقد قَطع بقَدْر مسافة الأرض مئة مرَّةٍ وزيادة في لحظةٍ من اللحظات. وهكذا يسيرُ علىٰ الدَّوام والعبدُ غافلٌ عنه وعن آياته.

وقال بعضهم: إذا تلفَّظتَ بقولك: لا، نَعَم، فبين اللفظتين تكونُ الشمسُ قد قَطَعَت من الفَلك مسيرةَ خمس مئة عام.

ثمَّ إنه سبحانه أمسك السَّموات مع عِظَمها وعِظَم ما فيها، وثبَّتها مِن غير عِلاقةٍ مِن فوقها[3] ولا عَمَدٍ مِن تحتها، الله الذي ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [لقمان: ١٠ ـ ١١].

فصل[4]

والنظرُ في هذه الآيات وأمثالها نوعان:

* **نظرٌ** إليها بالبصر الظَّاهر؛ فيرىٰ ـ مثلًا ـ زُرقة السَّماء ونجومَها وعُلوَّها

---

(١) (ح، ن): «كأنه لا يسير».

(٢) (ت، د، ق): «في أول».

(٣) العِلاقة: المِعلاق الذي يُعَلَّقُ به الشيء. «اللسان» (علق).

(٤) «الإحياء» (٤/ ٤٤٥).

وسَعَتَها؛ وهذا نظرٌ يشاركُ الإنسانَ فيه غيرُه من الحيوانات، وليس هو المقصود بالأمر.

* **والثاني**: أن يتجاوز هذا إلىٰ النظر بالبصيرة الباطنة، فتُفْتَحُ له[1] أبوابُ السَّماء، فيجولُ في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثمّ يُفْتَحُ له بابٌ بعد باب، حتىٰ ينتهي به سيرُ القلب إلىٰ عرش الرحمن، فينظر سَعَته وعظمته وجلاله ومَجْده ورِفْعَته، ويرىٰ السَّموات السَّبعَ والأرضينَ السَّبعَ بالنسبة إليه كحَلْقَةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاة، ويرىٰ الملائكةَ حافِّين من حوله، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير، والأمرُ ينزلُ مِن فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمُها إلا ربُّها ومليكُها.

فينزلُ الأمرُ بإحياء قومٍ وإماتة آخرين، وإعزاز قومٍ وإذلال آخرين، وإسعاد قومٍ وشقاوة آخرين[2]، وإنشاء مُلْكٍ وسَلْب مُلْك، وتحويل نعمةٍ من محلٍّ إلىٰ محلٍّ، وقضاء الحاجات علىٰ اختلافها وتباينها وكثرتها؛ مِنْ جَبْر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كَرْب، ومغفرة ذنب، وكشف ضُرٍّ، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورَدِّ آبِق، وأمان خائف، وإجارةٍ لمستجير، ومَدَدٍ لضعيف، وإغاثةٍ لملهوف، وإعانةٍ لعاجز[3]، وانتقامٍ من ظالم، وكفٍّ لعدوان.

فهي مراسيمُ دائرةٌ بين العدل والفضل، والحكمةِ والرَّحمة، تَنْفُذُ في أقطار العوالم، لا يَشْغَلُه سمعُ شيءٍ منها عن سمع غيره، ولا تُغَلِّطُه كثرةُ

(١) (ت): «فتنفتح له».

(٢) (ت): «وإشقاء آخرين».

(٣) (ت): «مستجير،... ضعيف،... ملهوف،... عاجز».

المسائل والحوائج علىٰ ٱختلافها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرَّمُ بإلحاح المُلِحِّين، ولا تنقصُ ذرَّةٌ من خزائنه، لا إله إلا هو العزيزُ الحكيم.

فحينئذٍ يقومُ القلبُ بين يدي الرحمن مُطْرِقًا لهيبته، خاشعًا لعظمته، عانٍ لعزَّته، فيسجدُ بين يدي المَلِك الحقِّ المبين سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلىٰ يوم المزيد.

فهذا سَفَرُ القلب وهو في وطنه وداره ومحلِّ مُلكِه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صُنعِه؛ فيا له من سفرٍ ما أبركَه وأروحَه، وأعظمَ ثمرتَه وربحَه[1]، وأجلَّ منفعتَه وأحسنَ عاقبتَه!

سفرٌ هو حياةُ الأرواح، ومفتاحُ السَّعادة، وغنيمةُ العقول والألباب، لا كالسَّفر الذي هو قطعةٌ من العذاب.

فصل[2]

وإذا نظرتَ إلىٰ الأرض كيف خُلِقَت، رأيتَها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فِراشًا ومِهادًا، وذلَّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقَهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السُّبل لينتقلوا فيها[3] في حوائجهم وتصرُّفاتهم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظُها لئلَّا تميدَ بهم[4]، ووسَّع أكنافَها، ودحاها فمَدَّها وبَسَطها، وطحاها فوسَّعها من جوانبها،

---

(١) (ح): «وأربحه».

(٢) «الإحياء» (٤/ ٤٤٠).

(٣) (ت): «ليتقلبوا فيها».

(٤) (ق): «تميل بهم». وهي بمعنى المثبت.

وجعلها كِفاتًا للأحياء تضمُّهم علىٰ ظهرها ما داموا أحياءً، وكِفاتًا للأموات تضمُّهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرُها وطنٌ للأحياء وبطنُها وطنٌ للأموات.

وقد أكثرَ تعالىٰ من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عبادَه إلىٰ النَّظر إليها والتفكُّر في خلقها؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]. وهذا كثيرٌ في القرآن.

فانظر إليها وهي ميتةٌ هامدةٌ خاشعة[١]، فإذا أنزل عليها[٢] الماءَ ٱهتزَّت فتحرَّكت، وربَت فارتفعت، واخضرَّت وأنبتت من كلِّ زوجٍ بهيج، فأخرجت عجائبَ النَّبات في المنظر والـمَخْبر، بهيج للناظرين، كريم للمتناولين، فأخرجت الأقواتَ علىٰ ٱختلافها وتبايُن مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها، والفواكهَ والثِّمار، وأنواعَ الأدوية، ومراعي الدَّوابِّ والطَّير.

ثمَّ ٱنظر إلىٰ قِطَعِها المتجاورات، وكيف ينزلُ عليها ماءٌ واحدٌ فتُنبتُ الأزواجَ المختلفةَ المتباينةَ في اللون والشَّكل والرائحة والطَّعم والمنفعة، واللِّقاحُ واحدٌ، والأمُّ واحدة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

---

(١) «هامدة» ليست في (د، ق، ت).

(٢) (ق، ت، د، ح): «فإذا أنزلنا عليها».

فكيف كانت هذه الأجنَّة المختلفةُ مُودَعةً في بطن هذه الأمِّ؟! وكيف كان حملُها من لقاحٍ واحد؟! صُنعَ الله الذي أتقنَ كلَّ شيء، لا إله إلا هو.

ولولا أنَّ هذا من أعظم آياته لما نبَّه عليه عبادَه، وحدَاهم(1) إلىٰ التفكُّر فيه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧]؛ فجعَل النظر في هذه الآية وما قبلها مِنْ خَلْق الجنين دليلًا علىٰ هذه النَّتائج الخمس، مستلزمًا للعلم بها.

ثمَّ أنظرهُ كيف أحكمَ جوانبَ الأرض بالجبال الراسيات الشَّوامخ الصُّمِّ الصِّلاب، وكيف نَصَبَها فأحسنَ نَصْبَها، وكيف رَفَعَها وجعلها أصلبَ أجزاء الأرض؛ لئلَّا تضمَحِلَّ علىٰ تطاوُل الزمان(2) وترادُف الأمطار والرِّياح، بل أتقنَ صُنعَها وأحكَم وضعَها، وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها، ثمَّ هدىٰ النَّاسَ إلىٰ استخراج تلك المعادن منها، وألهَمَهم كيف يصنعونَ منها النُّقودَ والحُلِيَّ والزِّينةَ واللباسَ والسِّلاحَ وآلات المعاش علىٰ آختلافها، ولولا هدايتُه سبحانه لهم إلىٰ ذلك لـمَا كان لهم عِلمُ شيءٍ منه ولا قدرةٌ عليه.

* * *

---

(1) (ن): «وهداهم». (ح): «ودعاهم».

(2) (ن، ح): «تطاول السنين».

ومن آياته الباهرة: هذا الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بين السَّماء والأرض[1]، يُدْرَكُ بحِسِّ اللَّمس عند هُبوبه، يُدْرَكُ جسمُه[2] ولا يُرىٰ شخصُه، فهو يجري بين السَّماء والأرض، والطَّيرُ محلِّقةٌ فيه[3] سابحةٌ بأجنحتها في أمواجه كما تَسْبَحُ حيواناتُ البحر في الماء، وتضطربُ جوانبُه وأمواجُه عند هَيَجانه كما تضطربُ أمواجُ البحر.

فإذا شاء سبحانه وتعالىٰ حرَّكه بحركة الرَّحمة، فجعَله رُخاءً ورحمةً وبُشْرًا بين يَدَي رحمته، ولاقحًا للسَّحاب يَلْقَحُه بحَمْل الماء كما يَلْقَحُ الذَّكرُ الأنثىٰ بالحَمْل.

وتسمَّىٰ رياحُ الرَّحمة: المبشِّرات، والنُّشُر[4]، والذَّاريات، والمرسَلات، والرُّخاء، واللَّواقِح.

ورياحُ العذاب: العاصِف، والقاصِف، وهما في البحر، والعقيم، والصَّرْصَر، وهما في البرِّ[5].

وإن شاء حرَّكه بحركة العذاب، فجعَله عقيمًا، وأودَعه عذابًا أليمًا، وجعَله نِقمةً علىٰ من يشاءُ من عباده، فيجعلُه صَرْصَرًا، ونَحْسًا، وعاتيًا،

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٤٣).

(٢) مهملة في (ق). (ت): «حسه». والمثبت من (د، ح، ن) و«الإحياء».

(٣) (ق، د، ت): «مختلفة فيه».

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ في قراءة أبي عمرو. وفي المصدرين التاليين: والناشرات.

(٥) ورد ذلك عن عبد الله بن عمرو وابن عباس، عند ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق والريح» (١٧٢، ١٧٤)، وأبي الشيخ في «العظمة» (٧٩٨، ٨٢٩، ٨٣٨).

ومُفْسِدًا لما يمرُّ عليه.

وهي مختلفةٌ في مَهابِّها، فمنها صَبًا، ودَبُورٌ، وجَنُوبٌ، وشَمال[1]، وفي منفعتها وتأثيرها= أعظمَ ٱختلاف؛ فريحٌ ليِّنةٌ رطبةٌ تغذِّي النَّباتَ وأبدانَ الحيوان، وأخرىٰ تجفِّفه، وأخرىٰ تهلكه وتُعْطِبُه، وأخرىٰ تَشُدُّه[2] وتصلِّبُه، وأخرىٰ تُوهِنُه وتضعِفُه.

ولهذا يخبرُ سبحانه عن رياح الرَّحمة بصيغة الجمع؛ لاختلاف منافعها وما يحدُث منها، فريحٌ تُثِيرُ السَّحاب، وريحٌ تَلْقَحُه، وريحٌ تحملُه علىٰ متُونها، وريحٌ تغذِّي النَّبات.

ولـمَّا كانت الرِّيحُ مختلفةً في مَهابِّها وطبائعها جعَل لكلِّ ريحٍ ريحًا مقابِلتَها، تكسِرُ سَوْرتها[3] وحدَّتها، وتبقي لِينَها ورحمتَها؛ فرياحُ الرَّحمة متعدِّدة.

وأمَّا ريحُ العذاب، فإنه ريحٌ واحدةٌ تُرسَلُ من وجهٍ واحدٍ لإهلاك ما تُرسَلُ بإهلاكه، فلا تقومُ لها ريحٌ أخرىٰ تقابلُها، وتكسِرُ سَوْرتها، وتدفعُ حدَّتها، بل تكونُ كالجيش العظيم الذي لا يقاومُه شيء، يدمِّرُ كلَّ ما أتىٰ عليه.

وتأمَّل حكمةَ القرآن وجلالتَه وفصاحتَه كيف ٱطَّرد هذا فيه في البرِّ، وأمَّا

---

(١) انظر: «أسماء الريح» لابن خالويه، و«التلخيص» لأبي هلال العسكري (١/ ٤٢٦)، و«الأنواء» لابن قتيبة (١٥٨)، و«الأزمنة والأمكنة» (٢/ ٧٤).

(٢) (ت): «تسدده».

(٣) أي: تخفِّفُ حدَّتها.

في البحر فجاءت ريحُ الرَّحمة فيه بلفظ الواحد، كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]؛ فإنَّ السُّفُنَ إنما تسيرُ بالرِّيح الواحدة التي تأتي من وجهٍ واحد، فإذا ٱختلفت الرِّياحُ علىٰ السُّفُن وتقابلت لم يتمَّ سيرُها؛ فالمقصودُ منها في البحر خلافُ المقصود منها في البرِّ، إذ المقصودُ في البحر أن تكون واحدةً طيِّبةً لا يعارضها شيء؛ فأُفرِدَت هنا وجُمِعَت في البرِّ[1].

ثمَّ إنه سبحانه أعطىٰ هذا المخلوقَ اللطيفَ الذي يحرِّكه أضعفُ المخلوقات ويَخرِقُه، من الشدَّة والقوَّة والبأس ما يُقْلِقُ[2] به الأجسامَ الصُّلبة القويَّة الممتنعة، ويُزعِجُها عن أماكنها، ويفتِّتها، ويحملُها علىٰ مَتْنِه.

فانظر إليه مع لطافته وخفَّته إذا دخل في الزِّقِّ[3] ـ مثلًا ـ وامتلأ به، ثمَّ وُضِعَ عليه الجسمُ الثَّقيلُ ـ كالرَّجُل[4] وغيره ـ وتحامل عليه ليَغمِسَه في الماء لم يُطِق، وتضعُ الحديدَ الصُّلبَ الثَّقيلَ علىٰ وجه الماء فيَرسُبُ فيه؛ فامتنَع هذا اللطيفُ مِنْ قهر الماء له ولم يمتنع منه القويُّ الشديد!

وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السُّفنَ علىٰ وجه الماء، مع ثِقَلِها وثِقَل ما تحويه، وكذلك كلُّ مجوَّفٍ حلَّ فيه الهواء فإنه لا يَرسُبُ فيه؛ لأنَّ

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢٠٦)، و«البرهان» للزركشي (٤/ ٩).

(٢) (ح، ت، ن): «تقلق». (ق): «تعلق».

(٣) وهو الوعاء من الجلد، يتَّخذُ للشَّراب ونحوه.

(٤) في «الإحياء»: «الرجل القوي».

الهواء يمتنعُ من الغَوص في الماء[1]، فتتعلَّق به السَّفينةُ المشحونةُ المُوقَرة.

فتأمَّل كيف ٱستجارَ هذا الجسمُ الثَّقيلُ العظيمُ بهذا اللطيف الخفيف وتعلَّق به حتىٰ أمِنَ من الغَرق، وهذا كالذي يَهْوِي في قَلِيبٍ فيتعلَّق بذَيل رجلٍ قويٍّ شديدٍ يمتنعُ عن السُّقوط في القَلِيب فينجو بتعلُّقه به؛ فسبحان من علَّق هذا المَرْكبَ العظيمَ الثَّقيل بهذا الهواء اللطيف مِنْ غير عِلاقةٍ ولا عُقدةٍ تشاهَد[2].

* * *

ومن آياته: السَّحابُ المسخَّرُ بين السَّماء والأرض، كيف يُنشِئُه سبحانه[3] بالرِّياح، فتُثِيرُه كِسَفًا، ثمَّ يؤلِّفُ بينه ويَضمُّ بعضه إلىٰ بعض، ثمَّ تَلْقَحُه الرِّيحُ ـ وهي التي سمَّاها سبحانه: لواقح ـ، ثمَّ يسوقُه علىٰ مُتونها إلىٰ الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوىٰ عليها أهراقَ ماءه عليها، فيرسلُ سبحانه عليه الرِّيحَ وهو في الجوِّ فتَذْرُوه وتفرِّقُه؛ لئلَّا يؤذيَ ويهدِم ما ينزلُ عليه بجملته، حتىٰ إذا رَوِيَت وأخذَت حاجتَها منه أقلَع عنها وفارقها؛ فهي رَوايا الأرض محمولةٌ علىٰ ظهور الرِّياح.

وفي «التِّرمذي»[4] وغيره أنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا رأىٰ السَّحابَ قال: «**هذه روايا الأرض، يسوقُها الله إلىٰ قومٍ لا يشكرونه ولا يَذْكرونه**».

---

(١) «في الماء» ليست في (د، ق، ت).

(٢) «الإحياء»: «من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد».

(٣) (د، ق، ت): «سحابة».

(٤) (٣٢٩٨). وهو جزءٌ من حديث أبي هريرة المتقدم قريبًا.

فالسَّحابُ حاملُ رِزق العباد وغيرهم التي عليها مِيرتُهم[1].

وكان الحسنُ إذا رأىٰ السَّحابَ قال: «في هذا ـ والله ـ رِزقكم، ولكنكم تُحْرَمُونه بخطاياكم وذنوبكم»[2].

وفي «الصَّحيح»[3] عن النبي ﷺ قال: **«بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض إذ سَمِعَ صوتًا في سحابة: ٱسقِ حديقةَ فلان، فمرَّ الرَّجلُ مع السَّحابة حتىٰ أتت علىٰ حديقة، فلمَّا توسَّطتها أفرغَت فيها ماءها، فإذا برجلٍ معه مِسحاةٌ يَسْحِي الماءَ بها، فقال: ما ٱسمُك يا عبد الله؟ قال: فلان، للاسم الذي سَمِعهُ في السحابة...»**.

وبالجملة؛ فإذا تأمَّلتَ السَّحابَ الكثيفَ المُظلِم[4]، كيف تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كُدورة فيه، وكيف يخلقه الله متىٰ شاء وإذا شاء، وهو مع لِينه ورخاوته حاملٌ للماء الثَّقيل بين السَّماء والأرض، إلىٰ أن يأذنَ له ربُّه وخالقُه في إرسال ما معه من الماء، فيرسلُه ويُنْزِلُه منه مقطَّعًا بالقَطَرات، كلُّ قطرةٍ بقَدْرٍ مخصوصٍ ٱقتضته حكمتُه ورحمتُه، فيرشُّ السَّحابُ الماءَ علىٰ الأرض رشًّا، ويرسلُه قَطَراتٍ مفصَّلة، لا تختلطُ قطرةٌ منها بأخرىٰ، ولا يتقدَّم متأخِّرُها، ولا يتأخَّر متقدِّمها، ولا تُدْرِكُ القطرةُ صاحبتَها فتمتزجُ بها[5]، بل تنزلُ كلُّ واحدةٍ في الطَّريق الذي رُسِمَ لها لا تَعْدِلُ عنه، حتىٰ

---

(١) المِيرة: الطعام ونحوه مما يجلَبُ للبيع. «اللسان» (مور).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٢٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٨٤) من حديث أبي هريرة بمعناه.

(٤) «الإحياء» (٤/ ٤٤٤).

(٥) (ح، ن): «فتمزج بها».

تصيبَ الأرض قطرةً قطرة، قد عُيِّنت كلُّ قطرةٍ منها لجزءٍ من الأرض لا تتعدَّاه إلىٰ غيره، فلو ٱجتمع الخلقُ كلُّهم علىٰ أن يخلقوا منها قطرةً واحدةً أو يحصُوا عدد القَطر في لحظةٍ واحدةٍ لعجزُوا عنه.

فتأمَّل كيف يَسُوقُه سبحانه رزقًا للعباد والدَّوابِّ والطَّير والذَّرِّ والنَّمل، يَسُوقُه رزقًا للحيوان الفُلانيِّ في الأرض الفُلانيَّة بجانب الجبل الفُلانيِّ، فيَصِلُ إليه علىٰ شدَّةٍ من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا.

ثمَّ كيف أودَعه في الأرض[1]، ثمَّ أخرجَ به أنواعَ الأغذية والأدوية والأقوات، فهذا النَّباتُ يغذِّي، وهذا يُصْلِحُ الغذاء، وهذا يُنْفِذُه، وهذا يُقَوِّي[2]، وهذا يُضعِف، وهذا سُمٌّ قاتل، وهذا شفاءٌ من السمِّ، وهذا يُمْرِض، وهذا دواءٌ من المرض، وهذا يبرِّد، وهذا يسخِّن، وهذا إذا حصَل في المعدة قمَع الصَّفراءَ من أعماق العُروق، وهذا إذا حصَل فيها ولَّدَ الصَّفراءَ واستحال إليها، وهذا يَدْفَعُ البلغمَ والسَّوداء، وهذا يستحيلُ إليهما، وهذا يهيِّجُ الدَّم، وهذا يسكِّنه، وهذا ينوِّمُ، وهذا يمنعُ النَّوم، وهذا يُفْرِحُ، وهذا يجلِبُ الغمَّ، إلىٰ غير ذلك من عجائب النَّبات التي لا تكادُ تخلو ورقةٌ منه ولا عِرقٌ ولا ثمرةٌ من منافع تعجزُ عقولُ البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها.

وانظر إلىٰ مجاري الماء في تلك العروق الدَّقيقة[3] الضَّئيلة الضعيفة التي لا يكادُ البصرُ يُدْرِكُها إلا بعد تحديقه، كيف يَقْوَىٰ علىٰ قَسْرِه وعلىٰ

---

(١) «الإحياء» (٤/ ٤٤٠، ٤٤٤).

(٢) «وهذا يقوي» ليست في (ح، ن).

(٣) (ت): «الرقيقة».

ٱجتذابه من مقرِّه ومركزه إلىٰ فوق، ثمَّ ينصرفُ في تلك المجاري بحسب قبولها وسَعَتها وضيقها، ثمَّ تتفرَّقُ وتتشعَّبُ وتَدِقُّ إلىٰ غايةٍ لا ينالها البصر.

ثمَّ ٱنظر إلىٰ تكوُّن حَمْل الشجر ونُقْلَتِه[1] من حالٍ إلىٰ حال، كتنقُّل أحوال الجنين المغيَّب عن الأبصار، ترىٰ العجبَ العُجاب؛ فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسنُ الخالقين.

بَيْنا تراها حَطبًا قائمًا عاريًا لا كسوة عليها، إذ كساها ربُّها وخالقُها من الزَّهْر أحسنَ كسوة، ثمَّ سَلَبَها تلك الكسوةَ وكساها من الوَرَق كسوةً هي أثبتُ من الأولىٰ، ثمَّ أطلَع فيها حَمْلَها ضعيفًا ضئيلًا، بعد أن أخرَج ورقَها صيانةً وثوبًا لتلك الثَّمرة الضعيفة، تستَجِنُّ به[2] من الحرِّ والبرد والآفات، ثمَّ ساق إلىٰ تلك الثِّمار رزقَها، وغذَّاها في تلك العُروق والمجاري، فتغذَّت به كما يتغذَّىٰ الطفلُ بلبان أمِّه، ثمَّ ربَّاها ونمَّاها شيئًا فشيئًا حتىٰ ٱستوت وكَمُلَت وتناهىٰ إدراكُها، فأخرَج ذلك الجَنىٰ اللذيذَ الليِّن من تلك الحطَبة الصَّمَّاء.

هذا، وكم لله من آيةٍ في كلِّ ما يقعُ الحسُّ عليه ويبصرُه العبادُ وما لا يبصرُونه[3]، تفنىٰ الأعمارُ دون الإحاطة بها وبجميع تفاصيلها.

فصل

ومن آياته سبحانه وتعالىٰ: الليلُ والنَّهار، وهما من أعجب آياته وبدائع

---

(١) (ق، ت، د): «وتقلبه».

(٢) (ت): «لتستجن به». (ح، ن): «لتسجى به».

(٣) (ت): «وما لا تبصر وبه».

مصنوعاته، ولهذا يعيدُ ذِكرَهما في القرآن ويُبْدِيه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧]، وقوله عزَّ وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقوله عزَّ وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١]. وهذا كثيرٌ في القرآن.

فانظر إلىٰ هاتين الآيتين وما تضمَّنتاه من العبرة والدَّلالة[1] علىٰ ربوبيَّة الله وحكمته:

كيف جعَل الليلَ سَكَنًا ولباسًا يغشىٰ العالَمَ فتسكُن فيه الحركات، وتأوي الحيواناتُ إلىٰ بيوتها، والطَّيرُ إلىٰ أوكارها، وتستَجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ من كدِّ السَّعي والتَّعب.

حتىٰ إذا أخذتْ منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتها، وتطلَّعت إلىٰ معايشها وتصرُّفها، جاء فالقُ الإصباح سبحانه وتعالىٰ بالنَّهار يَقْدُمُ جيشَه بشيرُ الصَّباح، فهزَم تلك الظُّلمةَ ومزَّقها كلَّ ممزَّق، وأزالها وكشَفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشرَ الحيوانُ وتصرَّف في معاشه ومصالحه وخرجت الطُّيورُ من أوكارها.

فيا له من مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ علىٰ قدرة الله سبحانه علىٰ المعاد الأكبر، وتكرُّره ودوامُ[2] مشاهدة النُّفوس له بحيثُ صار عادةً ومَألفًا منعها عن

---

(١) (ن، ح): «العبر والدلالات».

(٢) (ت): «وتكرر ودام».

الاعتبار به والاستدلال علىٰ النَّشأة الثَّانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعفَ في قدرة القادر التَّامِّ القدرة، ولا قصورَ في حكمته ولا في علمه يوجبُ تخلُّفَ ذلك، ولكنَّ الله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء.

وهذا أيضًا من آياته الباهرة: أن يَعمىٰ عن هذه الآيات الواضحات البيِّنات من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرُها، كمن هو واقفٌ في الماء إلىٰ حلقه وهو يستغيثُ العَطش، وينكرُ وجودَ الماء!

وبهذا وأمثاله يُعْرَفُ اللهُ عزَّ وجلَّ ويُشْكَرُ ويُحْمَد، ويُتَضرَّعُ إليه ويُسأل.

فصل[1]

ومن آياته وعجائب مصنوعاته: البحارُ المكتنِفةُ لأقطار الأرض، التي هي خُلْجَانٌ من البحر الأعظم المحيط[2] بجميع الأرض، حتىٰ إنَّ المكشوفَ من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلىٰ الماء كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيم، وبقيَّةُ الأرض مغمورةٌ بالماء.

ولولا إمساكُ الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ له بقدرته ومشيئته وحبسُه الماءَ لطَفَحَ علىٰ الأرض وعَلاها كلَّها. هذا طبعُ الماء.

ولهذا حار عقلاءُ الطَّبائعيِّين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض، مع اقتضاء طبيعة الماء[3] للعلوِّ عليه وأن يَغْمُرَه، ولم يجدوا ما يُحِيلون عليه ذلك إلا الاعترافَ بالعناية الأزليَّة والحكمة الإلهيَّة التي اقتضت ذلك ليعيش

(١) كلمة «فصل» ساقطة من (د، ق، ت). وانظر: «الإحياء» (٤/ ٤٤٢).

(٢) في الأصول: «المحيط الأعظم». والمثبت من «الإحياء».

(٣) (ت): «طبيعة الأرض».

الحيوانُ الأرضيُّ في الأرض. وهذا حقٌّ، ولكنَّه يوجبُ الاعترافَ بقدرة الله وإرادته ومشيئته، وعلمه وحكمته، وصفات كماله. ولا محيصَ عنه.

وفي «مسند الإمام أحمد»[1] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما مِن يومٍ إلا والبحرُ يستأذنُ ربَّه أن يُغْرِق بني آدم**».

وهذا أحدُ الأقوال في قوله عزَّ وجل: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]: أنه المحبوس. حكاه ٱبنُ عطيَّة[2] وغيرُه.

قالوا: «ومنه: ساجورُ الكلب؛ وهي القلادةُ من عودٍ أو حديدٍ التي تمسِكُه. ولذلك[3] لولا أنَّ الله سبحانه يحبسُ البحرَ ويمسِكُه لفاض علىٰ الأرض»؛ فالأرض في البحر كبيتٍ في جملة الأرض.

وإذا تأمَّلتَ عجائبَ البحر وما فيه من الحيوانات علىٰ ٱختلاف أجناسها، وأشكالها، ومقاديرها، ومنافعها ومضارِّها، وألوانها، حتىٰ إنَّ فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقومُ له شيء[4]، حتىٰ إنَّ فيه من الحيوانات ما يُرىٰ

---

(١) (١/ ٤٣)، وإسحاق بن راهويه ـ كما في «المطالب العالية» (٢/ ٣٤٣) ـ، ومن طريقه الإسماعيلي ـ كما في «مسند الفاروق» لابن كثير (٢/ ٦٠٧)، و«التفسير» (٧/ ٣٣١٤) ـ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإسنادٍ ضعيف؛ فيه راوٍ لم يُسَمَّ، وآخر لم أر فيه توثيقًا معتبرًا.
وانظر: «العلل المتناهية» (١/ ٤١)، و«الضعيفة» (٤٣٩٢).
وقد ساق المصنف الحديث بمعناه.

(٢) في «المحرر الوجيز» (١٤/ ٥١). وانظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٥٩).

(٣) (ت) ومطبوعة «المحرر الوجيز»: «وكذلك».

(٤) «لا يقوم له شيء» ليست في (ح).

ظهورُها فيُظنُّ أنها جزيرة، فينزلُ الرُّكَّابُ عليها، فتُحِسُّ بالنَّار إذا أُوقِدَت، فتتحرَّك، فيُعْلَمُ أنه حيوان[1].

وما من صنفٍ من أصنافِ حيوان البرِّ إلا وفي البحر أمثالُه، حتىٰ الإنسانُ والفَرسُ والبقرُ[2] وأضعافُها[3]، وفيه أجناسٌ لا يُعْهَدُ لها نظيرٌ في البرِّ أصلًا[4].

هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان؛ فترىٰ اللؤلؤةَ كيف أُودِعَت في كِنٍّ كالبيت لها[5] ـ وهي الصَّدَفة ـ تَكُنُّها وتحفظها، ومنه: «اللؤلؤ المكنون»، وهو الذي في صَدَفِه لم تمسَّه الأيدي.

وتأمَّل كيف نبتَ المرجانُ في قَعْرِه في الصَّخرة الصمَّاء تحت الماء علىٰ هيئة الشجر.

هذا مع ما فيه من العَنبر وأصناف النَّفائس التي يقذفُها البحرُ وتُستخرَجُ منه.

ثمَّ ٱنظر إلىٰ عجائب السُّفن وسَيْرها في البحر، تَشُقُّه وتَمْخَرُه بلا قائدٍ يقودُها ولا سائقٍ يسوقُها، وإنما قائدُها وسائقُها الرِّياحُ التي يسخِّرها الله لإجرائها، فإذا حُبِسَ عنها القائدُ والسَّائقُ ظلَّت راكدةً علىٰ وجه الماء.

---

(١) انظر: «الإحياء» (٤/ ٤٤٢).

(٢) (ح، ن): «والبعير». والمثبت من (د، ق، ت) و«الإحياء».

(٣) (ح، ن): «وأصنافها». والمثبت من (د، ق، ت) و«الإحياء».

(٤) انظر: «الإحياء» (٤/ ٤٤٢)، و«الحيوان» (٧/ ١٤٠)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٣٢٠).

(٥) (ت): «في بيت لها».

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٢ - ٣٣]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

فما أعظمَها من آيةٍ وأبينَها من دلالة! ولهذا يكرِّرُ سبحانه ذِكرَها في كتابه كثيرًا.

وبالجملة؛ فعجائبُ البحر وآياتُه أعظمُ وأكثرُ من أن يحصيها إلا الله سبحانه؛ وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢].

فصل

ومن آياته سبحانه: خلقُ الحيوان علىٰ اختلاف أصنافه وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودَعة فيه؛ فمنه الماشي علىٰ بطنه، ومنه الماشي علىٰ رجليه، ومنه الماشي علىٰ أربَع، ومنه ما جُعِل سلاحُه في رجليه - وهو ذو المخالب -، ومنه ما سلاحُه[1] المناقير، كالنَّسر والرَّخَم والغُراب، ومنه ما سلاحُه الأسنان، ومنه ما سلاحُه الصَّياصي - وهي القُرون - يُدافِعُ بها عن نفسه من يرومُ أخذَه، ومنها ما أُعطِي قوَّةً[2] يَدْفَعُ بها عن نفسه لم يحتَج

(١) (ح، ن): «ما جعل سلاحه».

(٢) (ن، ح): «وما أعطي منها قوة».

إلىٰ سلاح، كالأسد؛ فإنَّ سلاحَه قوَّتُه، ومنه ما سلاحُه في ذَرْقِه[1]، وهو نوعٌ من الطَّير إذا دنا منه من يريدُ أخذَه ذَرَقَ عليه فأهلكَه.

* * *

ونحن نذكُر هنا فصولًا منثورةً من هذا الباب مختصرة، وإن تضمَّنت بعض التكرار، وإن كانت غيرَ مرتَّبة، فلا ضيرَ بالتكرار وتركِ التَّرتيب في هذا المقام الذي هو من أهمِّ فصول الكتاب، بل هو لُبُّ هذا القسم الأوَّل[2].

ولهذا يكرِّرُ[3] في القرآن ذِكرَ آياته، ويُعِيدُها ويُبْدِيها ويأمرُ عبادَه بالنَّظر فيها مرَّةً بعد أخرىٰ؛ فهو من أجلِّ مقاصد القرآن.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

---

(١) ذَرْقُ الطائر: خرؤه. «اللسان» (ذرق).

(٢) وهو ما يتعلَّق بالعلم.

(٣) أي الربُّ سبحانه. وفي (ق، ن، د): «تكرر».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

فأمَر سبحانه بالنَّظر إليه وقتَ خروجه وإثماره ووقتَ نُضجه وإدراكه، يقال: «أينعَت الثمارُ» إذا نَضِجَت وطابت؛ لأنَّ في خروجه من بين الحطب والوَرَق آيةً باهرةً وقدرةً بالغة، ثمَّ في خروجه من حَدِّ العُفوصَة[1] واليُبوسة والمرارة والحموضة إلىٰ ذلك اللون المُشْرِق النَّاصع[2] والطَّعم الحلو اللذيذ الشهيِّ لآياتٌ لقومٍ يؤمنون.

وقال بعض السَّلف: حقٌّ علىٰ النَّاس أن يخرجوا وقتَ إدراك الثِّمار ويَنْعِها، فينظروا إليها. ثمَّ تلا: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾[3].

ولو أردنا أن نستوعِبَ ما في آيات الله المشهودة[4] من العجائب

---

(١) طعامٌ عَفِص: فيه مرارةٌ وتقبُّض يعسر ابتلاعُه. «اللسان» (عفص).

(٢) (ت، ح): «الناضج».

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢/ ٥٤٣)، وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٦) ـ عن محمد بن مسعر.

(٤) (ن، ت): «المشهورة».

والدَّلالات الشاهدة لله بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظمَ منه ولا أكمَل، ولا أبرَّ ولا ألطف= لعَجَزنا نحن والأوَّلون والآخرون عن معرفة أدنىٰ عُشْرِ معشارِ ذلك، ولكنَّ ما لا يُدْرَكُ جميعُه لا ينبغي تركُه البتَّة والتنبيه[1] علىٰ بعض ما يُستَدلُّ به علىٰ ذلك.

وهذا حين الشُّروع في الفصول[2]:

فصل[3]

تأمَّل العِبرة في وَضع[4] هذا العالَم، وتأليف أجزائه، ونَظْمِها علىٰ أحسن نظامٍ وأدلِّه علىٰ كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لُطفه.

فإنَّك إذا تأمَّلتَ العالم وجدتَه كالبيت المبنيِّ المُعَدِّ فيه جميعُ آلاته ومصالحه وكلُّ ما يحتاجُ إليه؛ فالسَّماءُ سقفُه المرفوعُ عليه، والأرض مِهادٌ وبساطٌ وفِراشٌ ومستقَرٌّ للسَّاكن، والشمسُ والقمرُ سراجان يُزْهِران فيه، والنُّجومُ مصابيحُ له وزينةٌ وأدلَّةٌ للمتنقِّل[5] في طرق هذه الدَّار، والجواهرُ

---

(١) (ق) بدون الواو. (ح، ن): «ترك التنبيه والتنبيه». (ت): «ترك التنبيه».

(٢) أصول هذه الفصول من كتاب «الدلائل والاعتبار» المنسوب للجاحظ، وسبق في المقدمة بيان التنازع في نسبته، وقد أدخلت أهمَّ قراءاته في فروق النسخ ورمزت له بـ (ر)، ورمزت لنسخة «توحيد المفضل» بـ (ض).

(٣) «الدلائل والاعتبار» (٣)، «توحيد المفضل» (١١ - ١٢).

(٤) (ض): «تهيئة».

(٥) (ت، ح): «للمنتقل».

والمعادنُ مخزونةٌ فيه كالذخائر والحواصِل[1] المُعَدَّة المهيَّأة كلُّ شيءٍ منها لشأنه الذي يصلُح له[2]، وضروبُ النَّبات مهيَّأةٌ لمآربه، وصنوفُ الحيوان مصرَّفةٌ[3] في مصالحه؛ فمنها الرَّكُوب، ومنها الحَلُوب، ومنها الغذاء، ومنها الدَّواءُ[4]، ومنها اللباسُ والأمتعةُ والآلات[5]، ومنها الحرَسُ الذي وُكِّل بحَرْسِ الإنسان؛ يحرُسه وهو نائمٌ وقاعدٌ مما هو مستعدٌّ لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سُلِّط عليه من ضدِّه لم يستقرَّ للإنسان قرارٌ بينهم، وجعَل الإنسانَ كالملِك المخوَّل في ذلك المحكَّم فيه، المتصرِّف بفعله وأمره.

ففي هذا أعظمُ دلالةٍ وأوضحُها علىٰ أنَّ العالم مخلوقٌ لخالقٍ حكيمٍ قديرٍ عليم، قدَّره أحسنَ تقدير، ونظَّمه أحسنَ نظام، وأنَّ الخالقَ له يستحيلُ أن يكون اثنين، بل إلهٌ واحد، لا إله إلا هو، تعالىٰ عمَّا يقولُ الظَّالمون والجاحدون عُلوًّا كبيرًا، وأنه لو كان في السَّموات والأرض إلهٌ غيرُ الله لفسَد أمرُهما، واختلَّ نظامُهما، وتعطَّلت مصالحهما.

وإذا كان البدنُ يستحيلُ أن يكون المدبِّرَ له رُوحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسَد وهلَك، مع إمكان أن يكونا تحت قَهْرِ ثالث؛ فكيف يمكنُ أن يكون المدبِّر لهذا العالم العُلويِّ والسُّفليِّ إلٰهين متكافئين متساويين ليسا تحت قَهْرِ ثالث[6]؟!

(١) الحواصل، جمع حاصل، وهو المستودع والمخزن. «تكملة المعاجم» (٣/ ٢٢٠).

(٢) (ر): «والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر».

(٣) (ض): «مصروفة».

(٤) «ومنها الدواء» ليست في (ت، ح، ن).

(٥) (ح): «والآلة».

(٦) من قوله: «فكيف يمكن» إلى هنا، ساقطٌ من (ت، ق، ن) لانتقال النظر.

هذا من الـمُحال في أوائل العقول وبَدائه الفِطر، فـ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].

فهذان بُرهانان يعجَزُ الأوَّلون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدحٍ صحيحٍ أو يأتوا بأحسنَ منهما، ولا يَعترِضُ عليهما إلا من لم يفهَم المرادَ منهما، ولولا خشيةُ الإطالة لذكرنا تقريرَهما[١] وبيانَ ما تضمَّناه من السرِّ العجيب والبرهان الباهر[٢]، وسنفردُ ـ إن شاء الله ـ كتابًا مستقلًا لأدلَّة التَّوحيد[٣].

---

(١) (ت، ح): «تقديرهما».

(٢) انظر: «الصواعق المرسلة» (٤٦٣)، و«الداء والدواء» (٤٧٠)، و«إعلام الموقعين» (٣/ ٢٧٤).

(٣) لم أر له ذكرًا عند ابن القيم في غير هذا الموضع، ولم أقف عليه ضمن قوائم مصنفاته عند مترجميه، ولا عثرتُ على من نقل عنه؛ فلعله لم يتيسَّر له تصنيفه، وقد تمنىٰ رحمه الله إفراد بعض المباحث بالتصنيف، فلم يتم له ذلك. انظر: كتاب «ابن قيم الجوزية» للشيخ بكر (٢٣٢، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٤٨، ...).

وهذه جملةٌ من المواضع التي بحث فيها أدلة التوحيد: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٨)، و«الصواعق المرسلة» (٤٦٠ - ٤٦٧، ١١٩٧)، و«طريق الهجرتين» (٩٢، ٢٥٧، ٢٥٩)، و«أيمان القرآن» (١٠، ٢٧، ٥٩، ١٣٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٦١، ٣٠٢، ٥٦٩)، و«الداء والدواء» (٨٢، ٤٧١)، و«بدائع الفوائد» (٧٨٠، ١٥٤٣، ١٥٩١)، و«شفاء العليل» (٩٣، ٣٨٠، ٤١١)، و«أحكام أهل الذمة» (١٠١٣)، وفهرس العقيدة آخر الكتاب.